فنون الإســـــلام

نقد ودراسة

للدكتور أحمـــد موسى

تفضل الدكتور زكي محمد حسن وكيل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وأستاذ الآثار الإسلامية فيها ، فأهدى إلى نسخة من كتابه « فنون الإسلام » وهو الكتاب الذي بدا لي عندما قلبت صفحاته أنه ليس من الكتب التي يسهل درسها ونقدها في وقت قصير ، مما ألزمني التأني في قراءته بإمعان يتناسب مع قيمته وخطره !

والحق أشهد أني وجدت في الكتاب كل ما تصبو إليه نفس القارئ من المتعة والتثقيف الفني ، أما المتعة فلأنه تناول تاريخ فنون الإسلام ونشوئها وتطورها من أقدم عصورها حتى آخر عصر النهضة الأوربية ، وهو موضوع لابد لكل قارئ الاطلاع عليه ، وأما التثقيف فلأنه حافل زاخر بدراسة محيطة لهذا الموضوع العظيم الشأن من جميع نواحيه ، في أسلوب الأديب ، فجاء بعيداً عن الجفاف العلمي الخالص ، مع توافر أصوله في كل صفحة من صفحاته ، مما جعل منه مرجعاً لكل باحث .

والأستاذ الدكتور زكي غني عن التعريف إلا أنه يهم القارئ أن يعلم أن مؤلف الكتاب (الذي بين أيدينا) حائز على دبلوم الآثار الشرقية والإسلامية من مدرسة اللوفر ، ودبلوم اللغة الفارسية من مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، فضلاً عن أنه حائز على ليسانس الآداب من الجامعة المصرية ودكتوراه الآداب من السوربون .

أما من حيث الناحية العملية فقد كان مساعداً علمياً بمتحف براين كما كان أميناً لدار الآثار العربية بالقاهرة ، وهو بهذا وبما سبق له تأليفه من كتب في الفن الإسلامي يدفع بالقارئ لكتابه إلى الاطمئنان الكامل .

ولا أبالغ في القول بأنه لولا مؤلفه المذكور وما سبقه من مؤلفاته[(١)] لكان ما أخرج للناس في لغتنا العربية خاصاً بالفن الإسلامي قليلا ضئيل النفع ، ولعل مما يؤيد هذا ، المراجع التي ذكرها في ذيل كتابه والتي بلغت ٢٧٠ مرجعاً بالألمانية والانجليزية والفرنسية ، اللهم إلا تسعة عشر مرجعاً جاءت باللغة العربية معظمها في موضوعين اثنين هما العمارة والخزف ، أما ما تبقى بعد ذلك من الموضوعات فلا توجد له مراجع معتبرة في اللغة العربية

ولسنا في مجال البحث عن الأسباب التي أدت إلى الركود العجيب في الدراسات الفنية بالبلاد الشرقية عموماً وبمصر على وجه الخصوص .

على أن هذا لا يمنع من أن أذكر أنه قد ظهرت بضعة مؤلفات باللغة العربية عدا تلك التي جاء ذكرها ضمن مراجع الدكتور زكي ، كان مؤلفوها من غير المتخصصين ، فكانت كتابا تهم لا تخرج عن محاولات ، فضلاً عن ظهورها في عالم المطبوعات ، في وقت كان إقبال الناس فيه على دراسة الفن ومعرفة أسراره ضئيلاً يكاد يكون معدوماً .

ولما كانت مهمة تاريخ الفن هي الاستعراض العلمي لنشوئه وتطوره وارتقائه وأثره ، على أساس التاريخ العام مع تطبيق أصول علوم أخرى ، ولما كان الأسلوب العلمي في التاريخ العام هو تقسيمه إلى الاقسام الثلاثة المعروفة بالقديم والمتوسط والحديث ، فإن تاريخ الفن مع كونه استعراضاً لنشوء الفن وتطوره وأثره كما ذكرت ، يخضع لنفس القاعدة بغية التبسيط ، ولإيجاد الرابطة الوثيقة بين التاريخ العام وتاريخ الفن ، على اعتبار الانتاج الفني مقياس الحضارات الصادق .

هذا بيان يدفع بي إلى الخروج عن موضوع الكتاب ؛ فأذكر شيئاً عن تاريخ العلوم والفنون الإسلامية عند الغربيين وعن الدوافع

(١) الفن الإسلامي في مصر — التصوير في الإسلام عند الفرس — كنوز الفاطميين — الطولونيون — في مصر الإسلامية — نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية ، وهذان الكتابان الأخيران اشترك مع آخرين في تأليفهما ، وله كتب ترجمها عن اللغات الاوروبية أذكر منها تراث الإسلام — وعلم الآثار ترجمه بالاشتراك مع الأستاذ محمود عزت .

التى حفزتهم إلى العمل فى هذا المجال الفسيح .

فعندما قصد رجال كنيسة روما نشر الديانة المسيحية بين شعوب آسيا وأوربا وشمال افريقية رأوا أنه لا مناص من معرفة لغات هذه الشعوب لأنها المفتاح الأوحد إلى قلوبهم ، فنجد أنه لم ينتصف القرن الثالث عشر الميلادى حتى كان البابا « اينوسنس » قد أصدر أمره بإنشاء كراسى (جامعية) لتعليم اللغة العربية ، وهو الأمر الذى حافظ على تنفيذه « كليمنس » الرابع و« هونوريوس » الرابع . أما فى عهد « كليمنس » الخامس ، فقد تقرر فى المؤتمر الكنسى بمدينة فيينا Vienna Synode إعداد معلمين لتدريس اللغة العربية فى كل من روما وباريس واكسفورد وبولونا وسلامنكا كطريق إلى غزو الشرق بما فيه من الكنوز العلمية والأدبية والفنية وغيرها ، وتطور الحال فلم تقتصر هذه العناية على معرفة اللغة العربية لذاتها ، بل ازداد الاهتمام بمعرفة أسرارها وإدراك ما كتب بها من مؤلفات فى مختلف العلوم والفنون ، لا للدرس والمعرفة فحسب ؛ بل كذلك للاستيلاء على تلك المؤلفات نفسها كلما سنحت الفرصة ، وهى المؤلفات التى ترجمها العرب عن الأغارقة وغيرهم عدا ما ألفوه ، لكى يتمكن العقل الأوربى من الوقوف على مصدر حضارة العرب ، وعلى ما تركه أرسطو وغيره من رجال المدرسة الأثينية والسكندرية من المؤلفات الزاخرة بالمادة العلمية للافادة منها جميعاً .

وهكذا انتهى الأمر بظهور الكثير من الكتب القيمة باللغة اللاتينية أصلها عربى من تأليف علماء المسلمين ومن اشتغل إلى جانبهم من الشرقيين خلال القرون الوسطى الزاهرة فى تاريخ الإسلام .

وجاء دور الانقلاب الدينى فى أوربا ، وأهم ما يعنينا من آثاره انتشار الدراسات الشرقية وزيادة العناية بمعرفة اللغة العربية عند ما كان « علم التفسير » exgesis من العلوم التى ترجع فى أصولها إلى المصادر الشرقية لإيضاح نصوص الكتاب المقدس .

هذا إلى جانب الدور الخطير الذى لعبته البعثات التبشيرية الكاثوليكية لنشر المبادئ المسيحية فى الشرق ، فخصص البابا « أربان » الثامن فى عام ١٦٢٧ لجنة الدعاية الدينية Collegium pro fide propaganda فريقاً من رجال اللاهوت لدراسة اللغات الشرقية وفى مقدمتها اللغة العربية .

وصفوة القول أن الدراسة العلمية السليمة لهذه اللغات وعلى رأسها لغة الضاد لم تبدأ إلا منذ منتصف القرن الثامن عشر بعدما خرجت عن نطاق الكنيسة ودخلت فى نطاق الاستعمار المنظم ، فنذكر وليم جونز الإنجليزى الذى وجه نظر بلاده (بلغة السياسة) إلى الدراسات الشرقية وما ينتظر من ورائها من فوائد ، وذلك فى مقاله الافتتاحى بمناسبة إنشاء الجمعية الأسيوية فى عام ١٧٨٤ ، كما نذكر سلفستر دى ساسى صاحب المجهودات البارزة للانتفاع بالمؤلفات العربية وكتاب العرب !

وإذا كانت الدراسات الشرقية فى مختلف العلوم قد سارت على غير نشاط متشابه نتيجة الاهتمام بفروع منها دون الأخرى ؛ فإن فجر القرن التاسع عشر قد عرف بأنه فجر النشاط الشامل لمختلف نواحى تلك الدراسات ، فبدأ التخصص يظهر فى أفق العلم ولا سيما بعد تأسيس الجمعيات العلمية فى كل دولة من الدول العظمى التى اهتمت بالشرق ، فنجد جمعية العلوم الشرقية الألمانية تأسست فى سنة ١٨٤٥ بمدينة ليبزج ، ومعهد اللغات الشرقية ومدرستها فى سنة ١٨٨٧ ببرلين ، على حين تأسست جمعية فيينا قبل ذلك باسم الأكاديمية الشرقية ، أما فى باريس فقد عرفت باسم Ecole spéciale des Langues orientales vivantes وعدا هذه جمعيات لندن وبطرسبرج وغيرها

كل هذا من أجل الشرق بما حواه ، ولم تكن هناك وسيلة لغزوه أفضل من وسيلة العلم ، فلن تجد فى أوربا من ينكر الخير العميم الذى جاء كالغيث على أهل أوربا نتيجة لتأسيس تلك الجمعيات التى عب الكثيرون من أعضائها للرحيل إلى الشرق للدرس الجامع الشامل والقيام بأعمال الحفر الأثرى استكمالاً لما شاهدوه منها ظاهراً يسحر الألباب !

ولهذا فلا عجب عند ما نجد كل المراجع الحديثة ذات القيمة العلمية فى البحوث الشرقية والإسلامية باللغات الأوربية .

ولكن الموضوع لا يقف عند هذا الحد ، إذ اتضح بعد وضع المؤلفات عن الشرق وما فيه افتقارها إلى الأسلوب العلمى الذى لا يكون إلا بالتخصص ، ولما كانت هذه المؤلفات قد اشتملت ضمناً على التراث الفنى الجيد ، وفيه مجال فسيح الأفق لا يصل إلى مداه إلا الدارس ، رأينا هؤلاء الأوربيين يعطون القوس باريها !

وهنا أرانى مضطراً مرة أخرى إلى التعريج على قصة تاريخ الفن ما دمنا فى معرض الكلام عن « فنون الإسلام » :

فقد بدأ الكاتب الرومانى بلينيوس كتابه عن الفن وتاريخه (فى العصر القديم) فى القرن الأول المسيحى ، ووضع الكاتب الإغريقى بوزانياس فى النصف الثانى من القرن الثانى المسيحى كتابه الشامل لبيانات وأوصاف وإيضاحات فنية نافعة كانت بأسلوب أقرب إلى السرد منه إلى النقد .

ولم يكن الأسلوب مختلفاً عن ذلك كثيراً فى القرون الوسطى فلم يكن ما كتب يزيد عن وصف عام للمعابد ، وإيضاح لما استنفد فى إنشائها من مجهود .

وقد ظهرت بعدئذ كتب فى تاريخ الفن العام فى ثوب على نتيجة لإقبال الناس على مؤلفات الأقدمين ودراسة آثارهم والنقل عنهم ، فقام فريق من أهل العلم بتفسير ما حرره فيتروفيوس ، على حين اشتغل فريق آخر بتسجيل الكتابات والنقوش التى وجدت على كثير من الآثار مع تفسيرات وشروح .

ومهما يكن نوع هذه المجهودات والطريقة التى سار عليها أصحابها ، فإنه لا يمكننا أن نرجع المحاولات الصائبة فى مضمار تاريخ الفن إلى أبعد من القرن السادس عشر ، عند ما كتب لأول مرة المؤرخ اللاتينى « فاسارى » الذى تتلمذ فى الفن على ميكلانجلو ، والذى يعد بحق إمام مؤرخى الفن ، كتابه القيم الذى حوى تراجم مفيدة لرجال الفن فى إيطاليا .

وهناك مؤلفات جديرة بالذكر ، منها كتاب «المشاهدات» لكارل فان ماندر ، وكتاب أكاديمية العمارة والنحت والتصوير ليواخيم فون ساندررت ، وكتاب برنارد دى مونتفاكو ، فضلا عن كتاب يواخيم فينكلمان مؤسس علم الآركيولوجيا سنة ١٧٤٥ وجاء بعد هؤلاء كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم .

إلى هذا الحين كانت كل المجهودات فردية ، كما كان اتجاه كل مؤلف اتجاهاً خاصاً ولفن بعينه ، فكان الراغب فى المعرفة الفنية العامة لا يستطيع الوصول إلى بغيتـه ، حتى آن الأوان وتكاتف فريق من علماء الألمان كسابق تكاتفهم فى مضمار تاريخ الفلسفة وغيرها — على إخراج مؤلف شامل ، فظهر فى الأفق كتاب « شنازه » وبعده بقليل كتاب « لوبكة » وبعده كتاب عظيم الشأن هو « تاريخ الفن العام » لمؤلفه أنطون شبرنجر ، والذى يطبع حتى اليوم بإضافات مستمرة فى مجلدات ستة تعتبر مرجعاً طيباً لكل مؤرخ فنى .

وقسموا كتبهم التى أخرجوها فى مجلدات إلى عصور ، والعصور إلى مراحل ، ووزعت المراحل على الشعوب توزيعاً جغرافياً حرصاً على استبقاء آثار التجاور وتشابه الأجواء والبيئات على الإنتاج الفنى فضلا عن سهولة التناول ، فجاءت المؤلفات ومنها ما يخص الفن القديم من شرقى وغربى ، فمصر وبابل وآشور والعراق والفرس والهند والصين فى كفة ، والإغريق والرومان فى كفة أخرى .

وهكذا كان التقسيم لفن العصر المتوسط ولفن العصر الحديث من حيث المنهج والأسلوب الدراسى .

هذا إلى جانب تقسيم الإنتاج الفنى نفسه إلى عمارة ونحت وتصوير وفنون رفيعة الخ .

وظل البحث الفنى فى تقدم مستمر بتقدم أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار إلى جانب ترميم وإصلاح المعابد والمبانى من كنائس وقصور ومساجد الخ ، فوجدنا كتباً عن فن قائم بذاته كالفن الإغريقى وحده ، كما وجدنا مجلدات تخص فن النحت دون سواه . ولم تقف الحال عند هذا ، بل ترى فريقاً من عشاق الفن وقد اشتغل بتأريخ حياة مثال بعينه ؛ فتجد بحثاً قائماً بذاته عن فيدياس مثلا .

أما التقدم فى إخراج هذه الكتب فكان من ثلاث نواح ، الأولى أن تأليفها كان مبنياً على أصول البحث العلمى وما يحتاج إليه هذا من الأفاضة فى الموازنة والمقارنة ، وفى ذكر المراجع والمصادر عند عرض رأى من الآراء الفنية أو مناقشته ، والثانية تزويدها بالصور الفوتوغرافية القيمة التى أماطت اللثام عن كثير من الدقائق التى لا يمكن فحصها فى مكانها الأصلى ، إلى جانب تكاليف السفر ومشقته وما يستنفده من وقت ومجهود ، والثالثة تقدم فن الطباعة تقدماً عجيباً جمل فى الأمكان الجمع بين لوازم العلم من ناحية تنويع حروف الطباعة لملاءمة البحث وتمييز فصوله وأبوابه ، وتلوين الأشكال والصور بألوان تحاكى الأصل — وبين الدقة والعنـــاية ، بل والأناقة فى الإخراج ، فأصبحت كتب الفن فى كل من أوربا وأمريكا أنموذجاً للكمال .

هذا إلى جانب ما أخرج للراغبين من معاجم ودوائر معارف وموسوعات ومجلات ونشرات وتقارير سنوية وغير سنوية للدراسات والاكتشافات الفنية والأثرية وأصول النقد الفنى والتقدم فى النقد المقارن .

كانت كل هذه المجهودات تسير قدماً ونحن فى نوم عميق ! على أن هذا النوم العميق لم يمنع من ظهور بعض الكتب المترجمة عن الفن المصرى حيناً وعن الفن فى القرون الوسطى .

وفى عصر النهضة وما بعده حيناً آخر ، وهى كتب أكثر ما يمكن أن يقال فيها أنها محاولات وترجمات لكتب فنية لا تتفق أصلا مع حاجة المصريين ولا مع سابق دراساتهم إلى ذلك الحين على الأقل ، كما كان بعضها أقرب إلى « كتالوجات » الصور منه إلى الكتب الدراسية ذات الأسلوب النافع . ولهذا جاءت ضعيفة الإخراج قليلة المادة ضئيلة النفع ، لا لشيء سوى عدم تخصص مترجميها أو مؤلفيها من ناحية وعدم وجود القارىء للكتب الفنية القيمة التى تدفع بالمتخصصين إلى العمل من ناحية أخرى .

ولقد ظهرت بعد الثورة المصرية بعض كتب قيمة إلى جانب مقالات وبحوث ظهرت فى مجلات محترمة عن الفن واتجاهاته ومدارسه . فإذا ما ظهر اليوم كتاب « فنون الإسلام » لتنوير الأذهان نحو موضوع من أخطر موضوعات الثقافة الفنية الإسلامية ؛ فإنه لا يسعنا إلا تهنئة القراء الشرقيين عموماً والمصريين على وجه الخصوص بهذا الكتاب الجامع الشامل !

والحق أشهد أنه من أشق الموضوعات التى تحتاج إلى التريث وطول الأناة وسعة الاطلاع ، فعندما يتصدى الكاتب لفنون الإسلام جميعاً إنما يجابه موضوعاً عسيراً ، لا يتغلب عليه إلا القادرون .

جاء الكتاب فى نحو ٧٥٠ صفحة من القطع المتوسط شاملا للعمارة والنحت والتصوير وأعمال النجارة والقاشانى والفنون الزخرفية بأوسع معانى الكلمة ، وذلك فى الأقطار الإسلامية مرتبة ومبوبة تبويباً خاضعاً للاسلوب العلمى .

وإذا علمت بأن فنون الإسلام فى مجموعها تقف أمام الفنون الوثنية الكلاسيكية موقف الناهض ، وأنها قامت على أكتاف الفنون المسيحية فى أول أمرها ثم أخذت تستقل رويداً رويداً حتى تم لها الوجود والكيان القائم بنفسه ؛ استطعت تقدير المشقة والجهود المبذولين لبيان هذا الاتجاه بقلم كاتب مصرى مسلم !

ولعل من الخير أن نذكر أن المحور الذى تدور حوله الفنون المسيحية المبكرة وما بعدها كان دينياً خالصاً ؛ فأقيمت الكنائس مزودة بالتماثيل الآدمية وغير الآدمية ومحلاة بالتصاوير الدينية وما إليها ، على حين كان المحور الذى تدور حوله الفنون الإسلامية هو إنشاء المساجد والجوامع مجردة من النحت الآدمى والصور الدينية ، وهذا موضوع تناوله المؤلف بالبيان فى كتابه .

وقد اختص الدكتور زكى موضوع التصوير الإسلامى بأكبر عدد من الصفحات (٧٨ صفحة) تناول المؤلف فيها ضمناً ما قيل من الأسباب التى جعلت منه فناً جامداً — وأخذ يناقش مختلف الآراء بأسلوبه الممتع . كما اختص الفنون المدنية بعناية تجلت فى نحو ٧٣ صفحة ، أما المنسوجات فقد جاءت فى ٥٣ صفحة ، والحفر على الخشب فى ٥١ صفحة ، ثم يلى ذلك الخزف والسجاد والزجاج والبلور الخ . وهى أبواب كما ترى تصلح لأن تكون كتباً مستقلة ، ولكن المؤلف شاء أن يكون كتابه مرجعاً لكل باحث ومثقفاً لكل مريد .

ثم جاءت بعض الصور التى بلغ عددها جميعاً ٧٥٠ صورة على غير الدرجة المرجوة من الدقة والظهور وهى المرقومة ١٥٢ و ٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ و ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٨٠ ، ٤٥١ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥٢٤ و ٥٣٤ ، ٥٣٩ ، ٥٦٤ ، إلا أن هذا لا يمنع من تسجيل النجاح فهذه كلها لا تزيد عن ٤ فى المائة من مجموع صور الكتاب التى جاءت شرحاً وإيضاحاً للموضوع .

أما الأساليب الفنية الإسلامية فقد تناولها المؤلف منذ نشأتها فى القرن الأول الهجرى حتى غزته الأساليب الفنية الأوربية فى القرن الثامن عشر الميلادى بإفاضة وبيان شامل .

وربما كان من أوجه الكمال لو أن الدكتور ذكر أمام كل مرجع المكان الموجود فيه ، ذلك لأن عدد المراجع وقد بلغ ٢٧٠ يعد فى ذاته مفتاحاً لكل باحث ، فإذا علم ما يوجد منها بدار الكتب المصرية ، وما بالجمعية الجغرافية وما تضمن منها مجموعة المعهد المصرى ، ومكتبة الجامعة ومكتبة كلية الآداب ؛ فإنه ولا شك يختصر الطريق ويصل إلى ما يبتغيه .

وقد حرص المؤلف على تذييل كتابه بكشاف فى نحو ٢٣ صفحة وبخريطتين تخطيطيتين أولاهما لإيران ، وثانيهما للشرق الأدنى وبلاد المغرب .

فأملى ألمس فى القريب إقبال الناس على قراءة هذا الكتاب الذى أعده باقة زهر يانعة قدمها المؤلف إلى أبناء اللغة العربية ، فى أنسب الأوقات

أحمد موسى
كبير المفتشين بمصلحة المساحة المصرية

سكك حديد الحكومة المصرية

تسيير عربات جديدة فاخرة مكيفة الهواء

يتشرف المدير العام بأعلان الجمهور أنه قد تقرر البدء بتسيير العربات الجديدة مكيفة الهواء التي وصلت حديثاً اعتبارا من أول سبتمبر سنة ١٩٤٨ على خط مصر الاسكندرية وفي القطارات الفاخرة الصباحية والمسائية وفي قطاري اكسبريس الظهر

ويمكن لركاب الدرجة الأولى الذين يرغبون في السفر بهذه العربات حجز مقاعد لهم مقدماً مقابل رسم إضافي قدره ٣٠٠ مليم (ثلثمائة مليم)

وبيان القطارات كما يلي :—

من مصر الساعة ٤٥ر٧ والساعة ٣٠ر١٢ والساعة ١٨

من الاسكندرية الساعة ١٥ر٧ والساعة ١٢ والساعة ٣٠ر١٧

مطبعة الرسالة